

مشاركات قُرَّاء سلف

من القرطبة إلى الأصولية (3)

قراءة في فكر جورج طرابيشي
من كتابه " من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث "

كتبه : د. علي بن إبراهيم العجين

أستاذ الحديث الشريف- جامعة آل البيت - المملكة الأردنية الهاشمية

الفصل الثالث :

بين ظاهرية ابن حزم وحرفية طرايشي

مما عابه طرايشي على العلماء المسلمين ولا سيما أهل الحديث أنهم أتباع العقل النصي :

(وهو العقل المميز لجميع الحضارات المتمركزة دائرياً على نفسها نظير الحضارة العربية الإسلامية، بأنه العقل الذي يقدم تعقل النصوص على تعقل الواقع ، أو يرهن الثاني بالأول¹)، ولذلك شن حملة شعواء عليهم حتى وصف ابن حزم ب(وثنية النص²)، لكن طرايشي يمارس ظاهرية في بعض الأحيان أشد من ظاهرية ابن حزم، وهذا واضح في محاولة نفيه لعالمية الإسلام – وهي القضية المركزية لكتابه – ، فيقول أن الآيات (تنص متضافرة على أن لكل أمة رسولها، وعلى أن كل رسول لا يبعث إلا إلى قومه، وعلى أن الرسالة القرآنية التي بُعث بها الرسول محمد مشروطة لغويًا بعروبة حاملها وبعروبة الأمة المحمولة إليها، وجغرافياً ب " أم القرى ومن حولها" من دون أن يكون أصلاً لهذه الرقعة من الأرض من حدٍ آخر سوى عروبة لسان قاطنيها.³)، فالنص هو محور منطلق طرايشي بعد محاولته إخفاء الآيات الكثيرة الدالة على عالمية الإسلام، فهو نصي لتحقيق مآربه ، ويخفي النص أيضاً لتحقيق مآربه، وهو حرفي لدرجة أن يجعل وصف القرآن العربي دلالة على نزوله للعرب خاصة، وأضيق حرفية عندما يجعل " أم القرى ومن حولها " مضيقاً بالمعنى الجغرافي للكلمة، وهذا مناقض لما يدعيه من (والحال أن القرآن يبقى خطاباً مفتوحاً⁴)،

¹ من إسلام القرآن ص 111 .

² من إسلام القرآن ص 293 .

³ من إسلام القرآن ص 100 .

⁴ من إسلام القرآن ص 619 .

ولكن طرايشي يغلقه لتحقيق غرضه، رغم قوله : (والخطاب المفتوح يُبقى بدوره باب التأويل مفتوحاً⁵) ، فمفتاح التأويل بيد طرايشي يغلقه متى شاء ويفتحة متى شاء!!، وعندما فتح ابن حزم باب التأويل وخرج من حرفيته - كما يزعم طرايشي - لم يقبل طرايشي ذلك ، وأصر على حرفية النص، فعندما استدل ابن حزم - رحمه الله وقبله الإمام الشافعي - رحمه الله - بقوله تعالى في سورة النجم عن نبيه صلى الله عليه وسلم { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ } ، يصر طرايشي بظاهرة مقيمة على اعتبار حرفية الزمان والمكان والحدث ، ويرفض أن يبقى الخطاب مفتوحاً ويغلقه بقفل الجمود فيقول أن ابن حزم (يتجاهل ، مثله مثل الشافعي ، كون سورة النجم سورة مكية ، وكون الآيتين نزلتا قبل أن يكون للحديث ولمفهوم الحديث بالمعنى النبوي وجود⁶) ، فتأمل كيف يجمد على اسم " الحديث " ، وهو الذي يصف ابن حزم بأنه صاحب المذهب الاسمي !!، ويمضي في حرفيته قائلاً : (فالآيتان نزلتا في سياق المجادلة مع أهل مكة من مشركين وكتابين ممن أبوا تصديق بعثة الرسول ، تنبيهاً لهم على أن الرسول حين ينطق بالقرآن فليس ينطق عن هوى، بل بما يؤتاه من وحي ربه، وليس صعباً أن ندرك أين يعاظم ابن حزم ، كما الشافعي، في التأويل : فهو يطلق فعل النطق ويفك الارتباط بينه وبين المنطوق به، أي أي القرآن، ليصير يعني أن كل ما هو منطوق به من قبل الرسول إنما هو وحي من عند الله⁷)، ويوغل طرايشي بظاهريته منكرًا استدلال العلماء بقوله تعالى { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } الحشر 7، على اتباع السنة النبوية، فقال : (نزلت آية طالما احتج بها الفقهاء والأصوليون اللاحقون ليبرروا تحويلهم للرسول من مشرّع له إلى شارح- فذكر الآية الكريمة- ، فههنا أيضاً يجمع أهل التأويل

⁵ من إسلام القرآن ص 619

⁶ من إسلام القرآن ص 371.

⁷ من إسلام القرآن ص 371.

والمفسرون على أنها نزلت في قسمة غنائم غزوة بني النضير.⁸)، ولكن طرايشي الذي يلجأ للمفسرين لا يقبل تفسيرهم لبيان عموم الدعوة المحمدية لجميع البشرية، ويقيد النص بقيد السبب والحدث، وأما علماؤنا فيقولون:

(العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، فكل ما ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإننا مأمورون باتباعه شرعاً إلا أن يدل الدليل على نسخه أو خصوصيته أو تقييده وغير ذلك مما بينه الأصوليون .

ويتفوق طرايشي على ابن حزم في ظاهره واسميته فلا يترك مساماً يتنفس منه النص، فيقول : (فالسنة حصراً سنة الله، وفي الوقت الذي تتكرر فيه عبارة سنة الله في النص القرآني ثماني مرات ، فإن ست آيات تتوجه بالخطاب إلى الرسول مباشرة في ما يشبه الإنذار : { فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا } فاطر 43، والغائب الأكبر في النص القرآني هو تعبير سنة الرسول الذي سيحضر بالمقابل في كتب السيرة والتفسير والفقهاء والحديث حضوراً طاعياً.⁹)، فأى حرفية بعد هذه الحرفية!! وطرايشي يدرك أن معنى سنة الله الواردة في الآيات الكريمة هي عادته في معاقبة المكذبين المعرضين بعد إنذارهم ، فسنة الله فيهم لا تتبدل ولا تتحول ، قال تعالى : { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إْحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا } (42) (استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً (43) (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليُعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً } سورة فاطر (44)، وأما السنة النبوية المطلوب اتباعها فهو ما جاء به النبي صلى الله

⁸ من إسلام القرآن ص 73.

⁹ من إسلام القرآن ص 85.

عليه وسلم ، والتي أذن الله له بتبليغها بتوجيه منه، وهي وإن لم ترد في القرآن الكريم بحرفية الكلمة كما أراد طرايشي، فالأمر باتباعها مقرون بطاعة الله بآيات متضافرة المعنى ، ومنها آية سورة الحشر التي سبق بيان جمود آلة التأويل الطرايشية عندها، قال تعالى : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } الحشر 7، فطرايشي الذي خرج عن نص القرآن الكريم إلى متاهات التأويل عند طعنه في مقام النبوة في قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يقبل إلا أن ترد لفظة السنة النبوية بحرفيتها وتركيبها ، ثم تراه يخلط بين المصطلحين " سنة الله " و " السنة النبوية " ، فهي حرفية محرفة.

ويهاجم الإمام الشافعي الذي أعمل فكره في فهم القرآن عندما فسر كلمة " الحكمة " بالسنة، ونقل ذلك عن سبقة من أهل العلم ، ويتهمة أنه أراد أن يفرض رأيه¹⁰ ، ويتهمة بما جنته يدها عندما أخفى الآيات الكثيرة الدالة على عموم الرسالة الإسلامية لكل البشرية- فكل يرى الناس بعين طبعه - فيقول عن الشافعي : (بدلاً من أن يستقرئ الآيات الإحدى والثلاثين استقرأً تاماً ، أو حتى ناقصاً غيب عن وعي قارئه أربعاً وعشرين آية وأحضر له سبع آيات ليُلْبِسها من خلال ذلك التغييب وهذا الإحضار المعنى الذي أراد ...¹¹)، والشافعي ليس بحاجة لدرس في أخلاقيات المعرفة على يد طرايشي وخاصة أن طرايشي هو الذي كان يخفي الآيات عن قارئه عند نفيه عموم الرسالة المحمدية ، وادعى أن المفسرين لم يفوزوا إلا بآية واحدة في الموضوع، والشافعي مبدع علم الأصول لا يحتاج لدرس في المنهجية العلمية وأنواع الإستقراء التام والناقص، والشافعي العربي الهاشمي القرشي ليس بحاجة لدرس في اللغة على يد طرايشي وهو الذي أخذ اللغة من قلب صحراء العرب ومن أفواه أهلها، لكن الشافعي الأصولي المفكر أوسع فكره لمدلول الآية فرأى عطف الحكمة على الكتاب ، فتوصل لهذا التفسير ، و فكر طرايشي الحداثوي تصلب فتعطل فاتهم الشافعي

¹⁰ انظر : من إسلام القرآن ص 177

¹¹ من إسلام القرآن ص 177

بإخفاء الآيات ، فيقول : (فماذا فعل صاحب الرسالة حتى يفرض التأويل الذي يريد فرضه ؟ أو بتعبير أدق وأقسى : ماذا فعل حتى يمرر التأويل الذي يريد تمريره ؟ بدلاً من أن يستقرأ الآيات الإحدى والثلاثين استقراءً تاماً ، أو حتى ناقصاً ، غيَّب عن وعي قارئه أربعاً وعشرين آية وأحضر له سبع آيات ليلبسها من خلال ذلك التغييب¹²) ، فطرايشي بحرفيته وجموده يطالب الشافعي باستدعاء كل آية وردت فيها كلمة الحكمة مع الكتاب من القرآن الكريم ، وهذا عين " اللفظية " و " الاسمية " فيتساءل : (فلماذا لم تسم بالاسم الذي يطابق هذا المعنى أي " السنة " ؟¹³) ، ويقول بكل ظاهرية : (فليس في معجم العربية ما يمكن أن يستدل منه أن الحكمة تعني السنة ، ولا السنة تعني الحكمة .¹⁴) ، إلا أن مفكراً واسع الأفق كالشافعي ، يذكر الآيات التي تخاطب المسلمين و النبي صلى الله عليه وسلم ، ليدلل على ما يريد ، فالقرآن يعطف الكتاب على الحكمة لبيان امتنان الله تعالى على المؤمنين ببعث النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، والعطف يقتضي المغايرة بين المتعاطفين ، فيكون معنى الكتاب القرآن الكريم ، ومعنى الحكمة السنة النبوية ، كقوله تعالى : { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } آل عمران (164) ، ولكن طرايشي يستغفل القارئ بحرفيته ويطلب من الشافعي استدعاء جميع الآيات التي ورد فيها ذكر الكتاب والحكمة ، ولو لم يكن الخطاب موجهاً مباشرة للمؤمنين ، فالله تعالى وصف عيسى عليه السلام بقوله : { وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ } آل عمران (48) ، وكغيرها من الآيات التي ذكرها طرايشي¹⁵ ، و بديهية أن المقصود بهذه الآيات ليس السنة النبوية ، فلماذا سيدكرها الشافعي !!؟ فمن يستغفل من !!؟

¹² من إسلام القرآن ص 177 .

¹³ من إسلام القرآن ص 181 .

¹⁴ من إسلام القرآن ص 182 .

¹⁵ انظر : من إسلام القرآن ص 179 .

وتمضي ظاهرية طرايشي - حسب هواه - فينكر على الإمام الشافعي استدلاله بالآية
الكريمة { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ } النحل 89 ، على بيان القرآن الكريم
لأحكام النوازل، فيقول : (أن مدار الآية- يعني - { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } - كما هو واضح من مساقها بتمامها ، هو على
الحساب يوم الحساب. وهي بذلك تتمم الآية التي تسبقها مباشرة { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } النحل 88، فالتبيان الذي
تتكلم عليه الآية ليس تبيان كل شيء من أمور الدنيا ، بل تبيان كل شيء من أمور
الآخرة والمحاسبة يوم الآخرة).¹⁶، ويقول : (فهذه السورة كما هو معلوم من الآيات
المكيات ، وفي الطور المكي لم يكن القرآن قد تضمن بعد أية أحكام بصدد نوازل الدنيا
، فمداره كله على الآخرة بنعيمها ، وعلى الأخص بجحيمها¹⁷)، فطرايشي ضيق معنى
الآية بمكيتها وحصر معناها باليوم الآخر، والشافعي بسعة فكره أخرجها من دائرة الزمان
والمكان إلى دائرة الفاعلية بالحياة فمن صاحب العقل النصي !!؟.

ومن عجيب ظاهرية طرايشي إنكاره على الإمام الشافعي استدلاله بقوله تعالى : { أَيَحْسَبُ
الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } القيامة (36) على نفي الاستحسان لأن الله لم يترك الإنسان بغير
أمر أو نهي فلا يترك سدى، فيتهمه طرايشي بممارسة انزياحية ب(توظيف آية قرآنية هي
الآية 36 من سورة القيامة ، في المنحى الانزياحي نفسه الذي كان وظف الآية 89 من
سورة النحل ، ذلك أن الآية لا تمت بصلة من قريب أو بعيد إلى إشكالية مصادر الحكم
والقياس في النوازل الفقهية،....وهي نزلت كما يدل اسمها في المشككين في يوم القيامة
وفي ما ينتظر المكذبين بالله وبرسالته رسوله من عذاب يوم الحساب، وهي من

¹⁶ من إسلام القرآن ص 247 - 248.

¹⁷ من إسلام القرآن ص 248 .

مكيات القرآن التي كان مدارها الأول على الإيمان والكفر ، أو التصديق والتكذيب

بعثة الرسول ، يوم لم تكن جماعة المؤمنين قد تكونت بعد ليستدعي تكوُّنُها نزول

الأحكام في القرآن المدني¹⁸)، فطرايشي يسد فسحة فهم النص بإعمال العقل ، وتوسيع

مدلول النص عن حرفيته إلى رحابة الاستنباط والتعقل ، فعلماء المسلمين إذا أخذوا بالنص

نعتهم طرايشي بوثنية النص، وإذا تأولوا النص وصفهم بالإنزياحية!!

ونختم بمقارنة بين ظاهرية ابن حزم - رحمه الله - وظاهرية طرايشي ليحكم القارئ أيهما أشد

حرفية ، فقد استدل ابن حزم كما نقل طرايشي عنه على بطلان القياس بقوله تعالى : { ما

فرطنا في الكتاب من شيء } الأنعام 38، وقوله تعالى : { تبياناً لكل شيء } النحل 89،

فلا يحل القول بالقياس في الدين ولا بالرأي ، لأنه لا يختلف أهل القياس والرأي أنه لا يجوز

استعمالهما ما دام يوجد نص، وقد شهد الله تعالى بأن النص لم يفرط فيه شيئاً، وأن الدين

قد كمل ، فصح أن النص قد استوفى جميع الدين، فإن كان كذلك فلا حاجة بأحد إلى

قياس، ولا رأيه ، ولا إلى رأي غيره.¹⁹

هكذا نرى الإمام ابن حزم - رحمه الله - لم يجس نفسه في زمن نزول الآيتين المكيّتين بل

تجاوزهما لاستخراج مدلول أوسع من النص، فوسع دائرة فهم الآية ، ولكن طرايشي حجّر

واسعاً وضيق بحرفيته فهم النص فرد على ابن حزم قائلاً: (ولن ندخل في نقاش حول

مضمون الآيتينإنما حسبنا أن نشير إلى أن الآيتين كليهما مكيتان ولا صلة لهما

بالتالي بالنوازل وأحكامها التي عليها حصراً مدار الآيات المدنية، كما أن السياق الذي

وردتا فيه- والذي يضرب عنه ابن حزم صفحاً- هو سياق المحاسبة يوم الحساب ،

وبالتالي سد الذرائع في وجه من قد يقول في ذلك اليوم إنه كان يجهل مع أن الكتاب

¹⁸ من إسلام القرآن ص 257.

¹⁹ انظر : من إسلام القرآن ص 332.

نُزِّل " تبياناً لكل شيء " ²⁰، وأشد من ذلك فإن طرايشي يوغل بالإسمية واللفظية فيقول :

(ثم أننا لسنا متيقنين أصلاً أن المعني ب "الكتاب" في الآية 38 من سورة الأنعام هو القرآن، وأغلب الظن أن المقصود هنا قدر الله وقضاؤه المكتوب منذ الأزل والساري على جميع مخلوقاته من بشر وحيوان ، وذلك هو المنطوق الذي تفصح عنه الآية متى أخذناها بتمامها في سياقها ولم نجتزئها كما اجتزأها ابن حزم ، ومن قبله الشافعي، { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ {الأنعام 38} ²¹، ولسنا بصدد الدخول بخلاف المفسرين حول معنى الكتاب الوارد في الآية الكريمة ، وما يهمنا كيف يعيب طرايشي التأويلي الحدائوي على ابن حزم تأويله للنص ليوسع دائرة الاستدلال منه خروجاً عن ظاهره المعهودة ، ويتصلب طرايشي في منطوق النص ، ويحمد على واقعة الزمان والمكان مصرراً على أن مكية السورة لا تقبل إعمالها في غير ذلك ، وابن حزم الظاهري يترفع عن مثل هذا الجمود الفكري، فأيهما أشد ظاهرية!!؟

وفي خيانة من طرايشي لأيدلوجيته الحدائوية التأويلية يرفض طرايشي تأويل ابن حزم - رحمه الله - لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ { النساء 59، فقال أن أولي الأمر هم أهل العلم ²²، فقال : (ويكاد لا يحتاج لبيان أن ابن حزم يضرب هنا صفحاً عما انعقد عليه إجماع أهل التفسير وأسباب النزول من أن الآية نزلت على الأرحح في الحرب وقسمة غنائمها، وأن المعنيين بأولي الأمر... " أمراء السرايا " ²³ ، فحرفية طرايشي لا تقبل إدخال أهل العلم في مسمى أولي الأمر معتمداً على الإجماع في تفسير الآية وضرورة حصرها في سبب نزولها وإغلاق جميع منافذ الفكر فيها،

²⁰ من إسلام القرآن ص 332.

²¹ من إسلام القرآن ص 332.

²² انظر : من إسلام القرآن ص 375

²³ من إسلام القرآن ص 374.

مع أن ابن حزم لم ينفرد بذلك فجمع من العلماء يقولون هم : العلماء والأمرء، والإجماع الذي يتكأ عليه طرايشي في نقده لابن حزم، هو ذاته الإجماع الذي ينقض كتاب طرايشي من أساسه ، فالعلماء مجمعون على أن المقصود بطاعة الرسول الواردة في الآية اتباع السنة النبوية ، وهو الإجماع الذي يهدم ما ادعاه من التحول من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث ، ولو أتم طرايشي الآية لاتضح له ذلك ، فالله تعالى يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } ، فالله تعالى أمر عند التنازع بالرجوع لكتابه الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فالعلماء والأمرء عليهم الرجوع للكتاب والسنة عند الاختلاف.

وهكذا نرى الأستاذ جورج طرايشي يكون ظاهرياً متى شاء !!، وأصولياً يأخذ بالإجماع متى شاء !!، و يدعي القرآنية متى شاء !!، و تراثياً يعتمد على الأحاديث متى شاء !! ، وهكذا هي الشخصية الانقلابية ، لا تنقلب على مبادئها فحسب ، بل تتقلب بحسب أهوائها ، لتحقيق مآربها الأصولية الأولى .